امرأة غير عادية

أنهض من قيلولة الظهيرة، أنظر إلى الساعة، وإذا هي السادسة، لا بأس، لم أنم سوى ساعة، هذا يكفي، في كل مرة أنهض وأنا أحس بالإعياء أو التحطم أو الثقل، أو أشعر بالاكتئاب والحزن والقهر، هذه المرة أنهض ولا شيء من هذا ولا ذاك، شيء جميل، ولكن لا شيء يسر أيضاً، لن أخرج إلى أي مكان، سأبقى في البيت، إلا إذا ألحت علي زوجتي، سأكتب قصة جديدة، لدي فكرة قصة تشغلني منذ يومين، إذا لم أكتبها اليوم ضاعت.

تدخل زوجتي قائلة:

- القهوة في الشرفة جاهزة.

أخرج إلى الشرفة، نسمات الأصيل الناعمة تحمل إليَّ عبق القهوة يمازجه شذى زهرات الفل والياسمين من شجيرات صغيرة صفت على سور الشرفة، نداوة البلاط الرطب وقد غسلته زوجتي بالماء فأغرقته، وتركت فيه بقايا ترطب النسيم، تزيد الجو ألقاً، تقعد قبالتي على كرسيها المعدني ذي الشرائط الحمراء، هو كرسيها المفضل، أنا لا أحتله، أنا أقعد دائماً في الكرسي ذي الشرائط الزرقاء،

أحياناً أحاول مضايقتها، فأقعد في كرسيها، ولكن سرعان ما أتخلى عنه، إذ تقنعني بقولها: والله غايتي أن تراني قاعدة فيه، المهم أنه يحملني بشرائطه اللدنة، فلا أحس بثقلي، أشعر كأني محلق في الهواء، كأني في حالة انعدام الوزن.

أشعة الشمس المائلة إلى الغروب تنثال على واجهة العمارات المقابلة، فتتألق النوافذ والشرفات كالعسل،زوجتي تصب القهوة، ومعها يتهادى اللحن:

ولما أكون وياك هايم في بحر هواك

ما اعرفش إيه فات من عمري

في بعض الحالات أشعر بفيض من السرور، أحس بالكون رحباً جميلاً، كأنني فراشة أحلق، وفي بعض الحالات يعتريني الاكتئاب، كأنني خفاش معلق من رجليه، رأسه يتدلى إلى أسفل، والكون كله ضيق معتم، ولا مبرر لهذا الشعور أو ذاك، ولا سبب.

يرن جرس الهاتف، أنهض إلى غرفتي، ثم أرجع، وأنا في حيرة.

تسألني زوجتي:

ـ ما ذا بك؟ من الذي اتصل؟.

أقعد في الكرسي، أثني جذعي إلى الأمام، أتناول فنجان القهوة، أعيده إلى موضعه من الطاولة الصغيرة المدورة، أرجع بالكرسي إلى الوراء، أحس به غير مريح، أود لو أنهض، آخذ فنجان القهوة ثانية، أرشف منه رشفة واحدة، أحس بصمت زوجتي ثقيلاً، يزداد ضجري، ليتها تسألني أو تتكلم، أم كلثوم تردد:

أنت النعيم والهنا أنت العذاب والضنى

والعمر إيه غير دول..

أتكلم:

- سيدة، اطلعت على مجموعتي القصصية الأخيرة، تدعوني إلى فنجان قهوة، والآن، بعد ساعة، في السابعة.

- أين؟

أنهض، أطل على الشارع، أنظر إلى الساعة، أجيب:

- في شرفة فندق الشاطئ.

- كنت أتوقع كعادتنا النزول معاً إلى السوق.

- وهل تريدين شراء حاجة؟.

- لا أبداً، فقط لمتعة التجوال معك والتسكع، قد نرى شيئاً ضرورياً فنشتريه، ولكن ليست الغاية شراء أي شيء.

أصمت، أمسك سور الشرفة، أطل على الشارع، أميل إلى أسفل، أطل على شرفة الجيران، أمسك زهرة قرنفل متفتحة، أهم بقطفها، أتركها.

- ما اسمها؟

- لم تذكر اسمها، وأنا نسيت سؤالها.

- وكيف ستعرفها؟

- ستنهض إلى لقائي فور دخولي؟

- لعلها صحفية تريد إجراء مقابلة؟

- لا أعرف، لم تقل شيئاً من هذا.

- هل هي من بلد آخر؟

- لا أعرف.

- ما لهجتها؟

- كانت تتكلم العربية الفصيحة، لم أستطع تبين لهجتها.

- هل اعتذرت لها؟

- لا

- هل وعدتها بالمجيء؟

- لا أذكر بالضبط ماذا قلت لها، أذهلتني، تقريباً، المفاجأة.

ـ تقريباً أم كلياً؟

عدت إلى الكرسي، ألقيت نفسي فيه، أخذت فنجان القهوة، رفعته إلى فمي لآخذ منه رشفة، ولكن سرعان ما أعدته إلى موضعه.

تتكلم:

ـ اترك هذا الفنجان فقد برد، أسرع إلى لقائها، لتشرب هناك فنجان قهوة جديداً ساخناً.

ابتلعت كلماتها، كأنني أبتلع حبة دواء مُرة غير مغلّفة، صمتت، لم أنبس بكلمة، نهضت، دفنت غضبي، وقفت مسنداً ظهري إلى سور الشرفة، قلت لها:

ـ لن أذهب، هيا، هيئي نفسك لنذهب إلى السوق معاً.

ـ أرجوك لا تغضب.

ـ كيف لا أغضب، وقد قلت لي ما قلت.

ـ والله لا أقصد أي شيء، كلامي عادي جداً، ولكن نظرتك أنت إلى الأمور غير عادية.

ـ نعم، أنا كل شيء أراه غير عادي.

ـ اذهب إذن إلى مقابلتها

ـ كوني معي.

- ليس من اللائق، ماذا ستقول عني أو عنك؟

- لن تقول شيئاً.

- بل ستقول جبان، يخاف من زوجته، أو زوجته غيور جداً، لا ثقة لها به.

- سأتصل بحازم لأشاوره.

أنهض، أمضي إلى الداخل، وهي تقول:

- لا تشاور أحداً، اذهب إلى لقائها، وفي طريق العودة اشتر لنا جهاز هاتف لا سلكي.

ترجمت مرة عن الإنكليزية قصة لسومرست موم، عنوانها «وجبة غداء خفيفة» بطلها الكاتب نفسه، يرويها هو نفسه على لسانه، مثل معظم قصصه، ومثل معظم قصصي أيضاً، أرويها بضمير المتكلم، لا أعرف لماذا أحب ضمير المتكلم، أرتاح إليه كثيراً، لعله يمنحني حرية التعبير، ولكنني لست بطل قصصي، للأسف حتى الآن لم أكتب عن نفسي، المهم في قصة سومرست موم أن سيدة معجبة بقصصه تدعوه إلى مقابلتها، وتقترح أن يكون اللقاء في مطعم فاخر، وأمام المائدة تزعم أن طبيبها أوصاها بالحمية، وألا تتناول سوى نوع واحد، ولكنها تطلب نوعين وثلاثة وتطلب فاكهة في غير موسمها، وكان على البطل أن يدفع مبلغاً كبيراً. فكرت بعد ترجمتي القصة في كتابة

مقالة أقارن فيها بين القصة والمقامة البغدادية، هل أنا على وشك الوقوع في مقلب؟

أخبر حازم، فيجيبني:

- إذا كانت من داخل البلد وقد دعتك إلى فندق الشاطئ فهذا يعني أنها غنية، ربما كانت أرملة رجل ثري، تبحث عن أديب مثلك يكتب عنها، لعلها تطبع لك مجموعة قصصية على نفقتها، وإذا كانت من بلد آخر، فنزولها في فندق الشاطئ دليل أيضاً على غناها، لا تقصر في عقد صفقة معها، قد تكون فرصة العمر، وعلى كل حال خذ عنوانها ورقم هاتفها، حتى لو كانت من البلد، أنا أنتجت في معملي قمصاناً نسائية جيدة، أحضرت طرازها من إيطاليا، لعلها تساعدنا على ترويج البضاعة، ويمكن أن نصدر لها بعض العينات إذا كانت من خارج البلد، المهم أن تستفيد أنت، وأن تفيد.

أرجع إلى الشرفة، زوجتي في كرسيها، تجلس بهدوء تام، ترفع هي أيضاً فنجانها إلى فمها، تمتص من حافته كل ما فيه من بقايا ورواسب، عادة أكرهها فيها، منذ ثلاثين عاماً وأنا أكره فيها هذه العادة، ولم أستطع تحويلها عنها، كما لم أستطع تقليدها.

يـزداد ضـجـري، أود لـو تنـهـض غـاضـبـة لـتـمـنـعـنـي مـن الـخـروج، أو تـسـألـنـي عـلـى الأقـل رأي حـازم في الأمـر، تـرى ترددي وحيرتي، فتتكلم:

- لماذا أنت قلق؟ الأمر عادي جداً، اذهب إلى لقائها، وتصرف التصرف العادي.

أروح في الشرفة، وأجيء، أسألها:

- ولكن ما معنى عادي؟ في فرنسا من العادي جداً إذا التقى رجل بامرأة أن يكون السلام قبلة على الوجنتين.

- وهل هي فرنسية؟ أم هل أنت الآن في فرنسا؟

- ما رأيك هل أحلق ذقني؟

تنظر إليّ، تتأملني، ثم تقول:

- ذقنك نابتة، من اللائق أن تحلقها، فأنت ذاهب لمقابلة سيدة.

- أنا أرى أن أذهب كما أنا، حتى تشعر أني غير مهتم بها، وأني ذاهب هكذا من غير مبالاة، حتى إني سأذهب بقميصي الذي كنت أرتديه في الصباح.

- هذا يعني أنك لا تحترم المرأة، أو أن زوجتك لا تعنى بك، على العكس، هيا احلق ذقنك، وسأختار أنا

لك أجمل قميص من بين قمصانك، وسأضع لك «البروت» العطر الذي أفضله أنا.

ـ وهل من الضروري أن يكون ذوقها مثل ذوقك؟

ـ أنا أعرف، هذا هو العطر الذي تعجب به معظم السيدات.

أمام المرآة، وأنا أحلق ذقني، وإذا على الهاتف صديقي منير، أكلمه والصابون على ذقني:

ـ أود أن أستشيرك، تلقيت دعوة من سيدة إلى فندق الشاطئ.

ويرد على الفور:

ـ رائع جداً، اطلب أفخر أنواع الطعام، وأغلاها، اطلب الأطعمة الإيطالية أو الفرنسية، بل الفرنسية، لا تطلب أي صنف من الأصناف العربية المألوفة، واطلب أفخر أنواع المشروب، لا تخجل ولا تتردد، ما دمت مدعواً فلتطلب ما تشاء، المرأة تحب الرجل النهم إلى الطعام، أنا أعرفك لا تدخن، ولكن دخن، المرأة تحب الرجل الذي يدخن، اطلب من النادل أن يحضر لك علبة تبغ، تظاهر أنك نسيت علبة تبغك، ولكن حاذر وأنت تخرج، سيقف النادل عند الباب ويسألك: هل أعجبتك الخدمة، تمهل ودعها تمشي

أمامك، ليوجه النادل السؤال لها، ولتدفع هي له البخشيش، آه لو كنت أنا المدعو، كنت التهمت كل شيء حتى الصحون وخشب المائدة، على كل حال اذكرني وأنت أمام المائدة، وحاول

أقاطعه:

- يا أخي، هي تدعوني إلى فنجان قهوة.

ويعلق:

- لا بأس، اشرب القهوة، ثم قل لها: ما رأيك في عشاء خفيف، ومن المؤكد أنها ستوافق، وستدفع هي، قل لها: يسرني أن تدفعي أنت، لست ذلك الرجل المتخلف الذي يرفض أن تدفع المرأة عنه، أنا من أنصار حرية المرأة ومساواتها بالرجل، أريد أن أثبت لك أن ..

وأقاطعه:

- أشكرك، وأرجو أن

- لن أؤخرك، فهمت، أنت مستعجل، ولكن المهم ألا تخرج من غير عشاء.

ألخص لزوجتي رأي صديقي منير، فتعلق:

- ليس مخطئاً كل الخطأ.

ـ هل أتناول العشاء معها؟

ـ قلت إنها دعتك إلى فنجان قهوة، ولم تقل إنها دعتك إلى عشاء.

عند أسفل الدرج، وقبل بلوغي باب البناء ألتقي جاري فؤاد، أحييه مستعجلاً، وأمضي، وإذا به يستوقفني:

ـ شغلت بالي يا جاري، لم أنت مستعجل؟ هل من خدمة أستطيع أن أساعدك فيها؟ ولم هذه الجروح في ذقنك؟ أرجو ألا يكون هناك أمر ما؟!

أقف، أمسح ذقني بيدي، أندفع فأقول:

ـ حلقت ذقني بسرعة، تلقيت دعوة مفاجئة من سيدة إلى فندق الشاطئ.

يندفع محذراً:

ـ كن على حذر، ألمانيا كانت تستخدم النساء في الجاسوسية في أثناء الحرب العالمية، لا تصعد إلى غرفتها. ليكن اللقاء في البهو، ضع على المائدة ورقة واكتب أهم الأفكار، اكتب بصورة خاصة أسماء الأشخاص، أعرفك تجيد الإنكليزية، لا تتكلم بها، لابد أن يكون معها مترجم خاص، تظاهر بأنك لا تعرف الإنكليزية، ولاحظ الدقة في الترجمة والأمانة، ليكن جوابك أقصر من السؤال، لا تستسلم

لأسئلتها، قاطعها، بادر أنت إلى سؤالها، خذ الكثير وأعط القليل، تنبه إلى حقيبة يدها، لعلها تحمل فيها جهاز تسجيل، إذا كانت تحمل هاتفاً نقالاً، فتنبه إليه جيداً لأن بإمكانه تسجيل الحوار أو نقله إلى مكان آخر، وإذا

أقاطعه:

ـ أشكرك، ليس الأمر كما تتصور، هي عربية.

يتابع:

ـ وما أدراك؟ لعلها تجيد العربية، نعم، لقد مضى على تقاعدي من سلك قوى الأمن أكثر من عشر سنوات، ولكن ما أزال أتابع هذه الأمور وأعرفها، عندي كل كتب الجاسوسية وحروب العصابات، وما يزال لي أصدقاء في قوى الأمن كلها، هل أطلب من أحد أصدقائي أن يلحق بك فوراً إلى الفندق، أنت لا تعرفه وهي لا تعرفه، سيقعد إلى إحدى الموائد، سأعطيه أوصافك، وعند الضرورة، وبإشارة ما منك، سيتدخل فوراً، إذا أردت فأنا

أقاطعه ثانية، أشكره، وأمضي.

ما إن أصبح على الرصيف حتى تقف أمامي سيارة أجرة، السائق يشير إليّ أن تفضل. أتردد، لعلها حقيقة هي

التي أرسلته، ولكن أمام إلحاح السائق أجدني، وقد فتح لي الباب، إلى جواره، وينطلق بي.

الشمس تكاد تغيب، ظلال طويلة تكسو جدران العمارات، عتمة المساء ممتعة، كأنك ترى الأشياء كلها من وراء ستار رقيق، سحر ناعم يلف الكون، النسمات الصيفية ناعشة، هاني شاكر يردد: يا ريتك معاي يا حبيبي ياريتك معاي، هذا الوقت هو أجمل الأوقات عندي، أحب فيه الخروج من البيت دائماً مع زوجتي، لماذا تركتني اليوم أخرج وحدي؟!

- أرجوك أغلق المذياع.

هكذا أقول للسائق، فيرد وهو يغلق المذياع:

- الأغنية حلوة، ولكن أنا تحت أمرك، يبدو أنك مستعجل، سأقود لأجلك بسرعة.

- ليس كثيراً، لدي بعض الوقت.

- فور خروجك من باب البناء، بل قبل أن تخرج منه، لمحتك وأنت تنظر إلى ساعة يدك، ثم تنظر إلى الشارع باحثاً عن سيارة أجرة، لك صديق مغترب وصل للتو إلى الفندق تريد استقباله، بل أنت في الواقع على موعد مع صديقة وقد تأخرت عنها؟!

- وكيف عرفت؟

- أناقتك المفرطة، وعطرك الفاغم، وقميصك البني الجديد، الذي استخرجته الآن من صندوقه، طياته ما تزال ظاهرة عليه، وحذاؤك البني، بلون القميص، والبنطال الأبيض، كل هذه العلامات تدل، ولو لم تتكلم، وخروجك وحدك في هذا الوقت الذي يخرج فيه الناس جميعاً من غير أن تكون معك زوجتك هو وحده دليل ناطق، أستحلفك بالله، أخبرني، أنت ذاهب إلى موعد؟

- وهل يتوقع هذا من عجوز مثلي في الخمسين وقد تساقط شعر رأسه؟

- قد تكون في الخمسين، أو فوقها بسنتين أو ثلاث، ولكن في عينيك بريق، وتساقط شعر الرأس هو دليل نشاط وقوة، هكذا سمعت، أو دليل ذكاء وتفكير، وبعد ذلك لا بد للرجل في مثل هذا العمر من مغامرة أخيرة، يتأكد فيها من كل شيء.

أجيبه بهدوء:

- صدقت، أنا ذاهب إلى لقاء سيدة، ولكن لأشرب معها فنجان قهوة، لا أكثر.

- هل تعرفها من قبل؟

- لا، هي دعتني بالهاتف إلى فنجان قهوة.

ـ واضح أنها تدعوك إلى الفراش، وأنت، كما هو واضح أيضاً رجل طيب، أنا أنصح لك أن تأخذها إلى فندق آخر، فندق الشاطئ سيكلفك كثيراً، أنا أعرف فنادق كثيرة أرخص منه، وعندي غرفة في شقة فاخرة، إذا أردت

أقاطعه:

ـ الأمر كله ليس كما تتصور، أنا أديب، قاص، دعتني إلى لقاء أدبي، مع فنجان قهوة.

يضحك، يعلق:

ـ وما المانع، أستاذ، أن يكون بعد اللقاء الأدبي لقاء من نوع آخر؟!

ـ لا أظن أنها تفكر في ذلك.

ـ وما أدراك أنها لا تفكر، أنت اعرض عليها الخروج لشرب فنجان القهوة في شقة، هي ستفهم، وستقبل فوراً.

أمام باب الفندق يقول:

ـ لن آخذ منك الآن الأجرة، سأبقى هنا في انتظارك، سآخذك معها إلى أجمل شقة مفروشة.

أدفع له أجرته، وأصعد الدرج إلى الفندق.

أكاد أسخر من نفسي، لماذا هذا القلق والاضطراب أمام دعوة امرأة؟ لو دعاني رجل ما إلى مثل هذا اللقاء، هل كانت هذه المشاعر نفسها ستنتابني؟ لماذا هذه المواقف المتناقضة من رجل إلى رجل؟ هل زوجتي طيبة إلى هذا الحد وبريئة إلى هذه الدرجة؟ لعلها وهي المرأة تعرف حقيقة المرأة أكثر مني، لذلك قالت: اذهب إلى لقائها، الأمر عادي، ولكن لا أظن أن كل النساء كذلك، لا شك أن هناك من النساء من تمنع زوجها من الذهاب إلى مثل هذا اللقاء، زوجتي قرأت كل قصصي، أحياناً تقترح تغيير النهاية، أو تعديل جملة، أو استبدال اسم الشخصية، ولكن ما من مرة اعترضت على قصة، أو أثارت شكوكها، حتى لو كانت قصة حب، هل هي خيانة مني الذهاب إلى لقاء هذه المرأة؟.

ترى هل هي امرأة غير عادية؟.

بعد أقل من ساعة أرجع إلى البيت، حلت العتمة، النسمات تتسرب إليّ من نافذة السيارة، مصابيح الشوارع تتألق كاللآلئ، الجو أصبح أكثر متعة، ازدحام الشوارع بالسيارات، والإعلانات المضاءة، واكتظاظ الأرصفة بالمتسكعين أمام واجهات المحلات، كلها مما نسر به أنا وزوجتي كل مساء، نسيت شراء جهاز هاتف لاسلكي، سأخرج مع زوجتي إلى السوق فور وصولي، لن نمضي

السهرة في البيت، الأولاد في زيارة لبيت جدهم، سأدعوها إلى شرفة فندق الشاطئ، لن نكتفي بفنجان قهوة، سنتناول العشاء في شرفة الفندق المطلة على بركة السباحة، والمدينة كلها أمامنا، تتألق فيها الأضواء، مثل حوض سمك، ما كنت أتوقع أن يكون العامل في الاستقبال واحداً من طلابي، لقيني بحفاوة، كم هو مهذب، سيساعدني من غير شك على الحصول على حسم خاص في مطعم الشرفة.

أشذاء اللافند تغمرني فور دخولي البيت، وأصداء النغم تصدح:

أنا في انتظارك ياللي خليت ناري بضلوعي

وحطيت إيدي على خدي وعديت بالثانية غيابك

طوال ثلاثين عاماً، هي سنوات زواجنا، لم أر فيها زوجتي تختار شريطاً لأم كلثوم، دائماً كانت تفضل الأغاني الجديدة، لا تصدق أبداً إعجابي أيضاً بالأغاني الجديدة، حتى عندما أشتري أشرطة تسجيل لمطربات شابات أمثال نوال الزغبي، كانت لا تصدق، ولكن ما الذي جرى اليوم لتختار بنفسها أغاني أم كلثوم؟ هل المرأة لغز لا يمكن اكتشافه؟

أحدث زوجتي عن لقائي بالمرأة في شرفة فندق الشاطئ، فتعلق غير مبالية:

ـ أرأيت، الأمر عادي جداً.

ـ إذن، هيا لنخرج إلى السوق، لنشتري جهاز الهاتف، ونتناول العشاء في شرفة فندق الشاطئ.

ـ لا، لن نخرج، العشاء جاهز في شرفة البيت، وأم كلثوم تشدو لك.

في صباح اليوم التالي يلتقيني أحد الزملاء في الجامعة، يبادر إلى سؤالي:

ـ لمحتك مساء أمس تنزل من سيارة أجرة وتدخل إلى فندق الشاطئ، هل كنت مدعواً إلى تجمع المثقفين أم إلى تجمع المعارضة؟

ـ ليس لي علم بهذا ولا ذاك.

ـ أمس الساعة السابعة كان هناك اجتماع في القاعة الأولى للتجمع الثقافي وفي القاعة الرابعة للمعارضة.

أحدثه عن دعوة السيدة لي إلى فنجان قهوة في مطعم الشرفة، فيسأل بخبث:

ـ وبعد العشاء، هل دعتك إلى الانضمام إلى هؤلاء أم إلى..؟

ـ لم نتناول العشاء، شربنا فنجان قهوة في مطعم الشرفة، ولم تذكر شيئاً من هذا .. أبداً.

ـ طبعاً لن تفاجئك منذ اللقاء الأول.

ـ كان اللقاء عادياً، وأظنه لن يتكرر.

ـ أنا أعرفك، هكذا أنت دائماً، كل شيء بالنسبة إليك عادي، مع أن كل شيء في الواقع غير عادي، أنا أثق بك، وأعرف صدقك وبراءتك، ولكن قل لي من دلَّها عليك؟

ـ أحد طلابي، يعمل في الاستقبال في الفندق، هو من الطلاب الأذكياء، ويتابع نتاجي القصصي، نزلت في الفندق، رأت معه مجموعتي القصصية الأخيرة، فاستعارتها منه، اطلعت عليها، طلبت منه أن يساعدها على اللقاء بي، وقبيل مغادرتها إلى المطار، اتصلت بي بالهاتف، والتقيتها لأقل من ساعة.

ـ هذا يزيد الأمر خطورة، لأن المعارضة لها علاقات مع الخارج، كذلك أصحاب التجمع الثقافي، ولا بد أنها جاءت بدعوة من أحد التجمعين، لو أنك شاورتني لنصحت لك ألا تذهب إلى مقابلتها.

يصمت ثم يسأل بلهجة مختلفة:

ـ على كل حال قل لي بصراحة: ألم تصعد معها إلى غرفتها، و..

ويشير بيده إشارة ما، فأرد بهدوء:

ـ لم يحصل.

ـ لا أصدق أن اللقاء مرَّ هكذا، أنت تخفي عني

ـ الأمر ليس كما تتصور، أنا طوال عمري لم أخن زوجتي، ولن أخونها، وزوجتي كانت تعلم أني ذاهب إلى لقاء امرأة.

يغمغم:

ـ حقيقة هي امرأة غير عادية؟